محاضرة من ملكية الأستاذ بوغرطة حدادو

محاضرة رقم 2

تأسيس علم ما قبل التاريخ في أوروبا

حاول الانسان منذ ان ربط وجوده بعالمه الخارجي ان يعرف من هو وكيف جاء وما هو مصيره زمنيا، فلما نضج فكره و استطاع ان يفك الغاز الطبيعة، بدا يأسس بعض من الاطروحات حاولت الإجابة على تلك التساؤلات التي يمكن ان نصف طبيعتها في البداية بانها كانت فلسفية. لكن قبل هذا، لقد طغت **النظرية الدينية** حول مسائل بداية الخليقة والانسان على حد السواء خاصة في الديانات السماوية الثلاث و كانت البداية مع نصوص العهد القديم لما ارخ **الاسقف – اووشر 1581-1656** – تاريخ بداية الخليقة الى 4004 سنة قبل الميلاد اعتمادا على مقارنة التركات الاثرية لبعض نماذج عظمية مشابهة لعظام الانسان و بعض بقايا لعظام الحيوانات، فسرت منذ القرن XVII م على انها من مخلفات الطوفان العظيم و التي اكدتها هذه الحفريات. يتضح في هذا الموقف محاولة التوفيق بين المعطيات الاثرية و موقف رجال الدين في معرفة طبيعة هذه الحفريات من خلال النص الديني.

مع حلول القرن XIX الميلادي عرفت هذه الفترة انشقاق العلوم التجريبية عن الفلسفة خاصة مع نظرية الفيلسوف الفرنسي – **اوغسط كونت** – و تأسيسه لمبدا العلوم الوضعية بحيث نالت العلوم الطبيعية قسطا وفيرا من الدراسات و الأبحاث مما أدى الى إعادة استقراء تاريخ الخليقة من جديد لكن هذه المرة بتبرير حقيقة وجود هذه الحفريات و التأكد منها عن طريق النصوص التي تطرفت الى زمن الطوفان و كان من بين رواد الدراسات الطوفانية في ذلك – **وليام بوركلاند 1784-1856** – و كانت المملكة البريطانية آنذاك قد تزعمت **دراسات العلوم الطبيعية** ، فمن خلال

مناهجها حاول روادها تفسير زمن ظهور الانسان من خلال نظرية بوركلاند الذي اعتقد بإمكانية تأريخ زمن حدوث الطوفان من خلال قراءة طبقات الارض الجيولوجية و ارجع هذه الحادثة الى **الزمن الجيولوجي الرابع** و قد سماه كذلك بوركلاند **بالعصر الطوفاني** و اقر على إمكانية عثور على اثار لأنسان في هذه الحقبة التاريخية. لكن المدرسة الفرنسية حاولت ان تنتقد ما الت اليها الأبحاث بإنجلترا في هذا الشأن، حيث ظهرت شخصية أخرى تمثلت في الباليونتولوجي الفرنسي – **جورج كوفييه 1769-1832** م – حيث قدم تفسيرا للنماذج العظمية للحيوانات المندثرة، على انها بقايا لحوادث كونية عاشتها الأرض عدة مرات خلال فترات زمنية متعاقبة و قد لاحظ أيضا من خلال استقرائه للطبقات الأرضية (الستراتيغرافية) انه كلما حلت كارثة كونية إلا و ظهرت ثروة حيوانية من نوع جديد، رعم ذلك لم يبتعد كوفييه عن تعاليم النصوص الدينية خاصة فيما تعلق بنصوص سِفر التكوين التي تطرقت الى زمن ظهور الانسان على الأرض، الذي حدث بعد نهاية هذه الكوارث الكونية و ظهور أنواع أخرى من الحيوانات التي وجدها الانسان منتشرة في الطبيعة.

بعيدا عن النصوص الديانة المسيحية و عن ايديولوجيات أوروبا الغربية خاصة، كانت بلدان الاسكندينافية (بلدان شمال أوروبا : السويد ، النرويج، الدنمارك) على وشك تأسيس دولها الوطنية و كان من الضروري تأسيس تاريخا وطنيا لها ، لكن الاشكالية التي واجهتها انعدام النصوص التي تناولت تاريخها، فاعتمدت في مقارباتها على بقايا للأدوات الحجرية و على اكوام قشور البيوض تعود لفترات مجهولة و على بقايا لمدافن حجرية و كان من الضروري تأريخها، فاعتمد الأثريون على **مبدأ التصنيف او الدراسات النمطية** و **على الدراسات الستراتيغرافية (علم طبقات الأرض)** و كانت الدانمراك هي السباقة في هذا المجال حيث استطاع كريستيان تومسن من وضع تصنيفا اعتمد على دراسة اشكال الأدوات و مواضع تسلسلها في الطبقات الأرضية فاستطاع ان يصنف ثلاث فترات ماقبل التاريخ: العصور الحجرية، العصور البرونزية ثم عصر الحديد.

لكن هذا التقسيم لم يجد صدى لدى المجالس العلمية قبل سنة 1859 م لان المدرسة الدانماركية لم تستطع ان تفرق بين أدوات التي تعود معظمها الى فترات النيوليتيك و بين فترات العصور الحجرية ، اضف الى ذلك ان التآريخات التي وضعت لا تأخذ في الحسبان قدم المستحثات البشرية التي عثرت في عدة أماكن. لم تتوقف الاكتشافات عن المستحثات الحيوانية و البشرية بل ازدادت وتيرتها خاصة في المواقع الفرنسية و اشهرها موقع ابيفيل بضواحي باريس و كان الوحيد الذي اهتم بالموقع هو الجمركي بوشي دو بارت الذي وجد فيه نموذجا جيدا في تسلسل المستحثات من خلال الأزمنة الجيولوجية، اذ تاكد من خلال معاينته لادوات حجرية عثرت على طبقات ستراتيغرافية بها بقايا عظمية لحيوانات معروفة مثل أصناف الاحصنة و الكلاب و عاى حيوانات ضخمة مثل الماموت و وحيد القرن .

بوشي دو بارت مؤسس علم ما قبل التاريخ:

استغل بوشي دو بارت اعماله الحفرية في موقع – ابيفيل -واستخراجه للعديد من الأدوات الحجرية وبقايا عظمية للحيوانات بان يأسس نظرته مفادها ان هذه التركات الاثرية تعود الى **ازمنة قبل حدوث الطوفان** في أوروبا وان الكثير منها توضح تسلسلا كرونولوجيا في طبقات الأرض عندما قارن الأدوات الحجرية "**المصقولة**" و بجانبها بقايا عظمية لحيوانات حديثة مع نماذج اثرية اخرى عثرت عليها بنفس الموقع (ابيفيل) سنة 1842 م، لكن طبيعة الأدوات هذه المرة هي عبارة عن ادوات "**القطع**" و بجانب هذه الأدوات بقايا عظمية لحيوانات ضخمة منقرضة على غرار الماموت و وحيد القرن، فاستنتج تسلسل في نمط نحت الأدوات الحجرية من القاطعة ثم المصقولة. ايده في ذلك الدكتور –ريغولو Rigollot – عندما فحص سنة 1854 م موقع ابيفيل ومحتوياته ولم يمكث طويلا حتى عثر هو الاخر على أدوات حجرية بموقع – اميان Amiens – مشابهة لموقع أبيفيل و رغم ذلك فان طرح -بوشي دو بارت- لم يلقى صدى لدى الأوساط العلمية خاصة و قبل وفاته 1868 م

اصبحت اكتشافات بوشي دو بارت تولى لها أهمية بالغة من طرف جيل من العلماء على غرار : دو كاترفاج De quatrefages ، كابتن Capitan ، الاب بروي Abbé Breuil ، حامي Hamy و استطاع العالم – مورتييه Mortillet – تصنيف هذه الأدوات انطلاقا من اشكالها و وظيفتها .